الأمثال اليمانية ... دراسة تطبيقية ونظرية

د. أحمد علي الهمداني*

- ١ -

لعل دراسة الأمثال اليمانية تفتح أمامنا كثيراً من مغاليق الحياة الشعبية وأسرارها ، وتهدينا إلى القوانين والضوابط الفنية التي تجدي القارئ والدارس معاً في تفهم أشكال الأدب الشعبي ، واستيعاب اتجاهاته المتعددة . والأمثال اليمانية الشعبية مقتطعة من عمر الحياة ، تعبر عن جوانبها المترامية ، تصلح لكل زمانٍ ومكان وتتعمق الشخصية الإنسانية . وهي ((أدب الشعب ، وصوته ، وصورته النابضة بالحياة)) .[١]

فهي تمثل حياة الشعب كأحسن ما يكون التمثيل خصوبة وعطاء ، وهي نتاج خبرته بنفسه وبالحياة التي حوله . وهي حصيلة تجربة زمانية مديدة ، تستوعب تجربة الحياة اليمنية بكل خصوماتها وأمنها ، قلقها وهدوئها . ونحن نرى في هذه الأمثال صور البيئة المختلفة من عادات وتقاليد ؛ فعادات الزواج وطقوسه ، والخلافات العائلية ، والصراعات اليومية كل هذا يتجلى في أمثالنا واضحاً لا غبار عليه . هذه الأمثال هي الشعب اليمني عبر تاريخه الطويل ، فهي تعبر عن قوة ذكاء هذا الشعب وقدرته على الابتكار والاختراع واستقطاب الحقيقة عن طريق المثل في حادثة معينة أو مجموعة حوادث تعترض الإنسان في حياته اليومية . هذه الأمثال تحكي صورة ناطقة لخبرات المجتمع وتجاربه ، وتعكس مختلف علاقاته الإنسانية ، فهي صورة تفكيره ، منها نعرف كيف يفكر هذا الإنسان ، وكيف يعيش ، وبماذا يحلم ، وما هي أمانيه وآماله ، شؤونه وشجونه . ولعل هذه الأمثال الشعبية والحكم الشعبية نتاج العلاقات الاجتماعية بصورتها الواسعة ، وهي تمثل صراع الإنسان اليمني مع الحياة والطبيعة وظواهرها المختلفة من أجل البقاء ؛ صراع الحفاظ على النوع . وتشكل بعض هذه الأمثال والحكم تجربة الإنسان اليمني في صراعه مع

---

* نائب رئيس جامعة عدن للدراسات العليا والبحث العلمي

الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الشاذة . إذ يبدو المثل هنا أرقى وسيلة فنية من أجل احتواء هذه التجربة ، كونه يعتمد التعبير الخاطف في جملة قصيرة تعبر عن حادثة قد تستغرق ساعات طوالاً لتفهمها . هذا الشكل المعبر عن روح الإنسان بكل بساطتها وسلاستها ، بكل تعقيداتها وازدواجيتها صوت الشعب وضميره ، فهو مبدعه ومؤلفه . فلغة الأمثال الشعبية واختلاف مستواها الفني من حيث القوة والضعف ، الوضوح والغموض ، تدل على أن مبدع هذا الفن هو الجمهور ، كما أن عمومية التعبير شاهد آخر على جماعية المؤلف . على أن بعض النقاد ينسب الأمثال اليمانية إلى مؤلف بعينه ، فيرى أن أمثالنا الشعبية نتاج خبرة أشخاص معروفين كعلي بن زايد[٢] وحميد بن منصور وحزام الشبثي ، ويقع هذا النفر من الدارسين في تناقض ، إذ إن ما ينسب لعلي بن زايد من الأمثال قد ينسب إلى حزام الشبثي وقد ينسب إلى حميد بن منصور . وهناك من النقاد من يرى أن هؤلاء الحكماء ((ليس إلا الشعب اليمني))[٣] فهم ((صوت تأمل الشعب ، والصور الناطقة لتجاربه)) [٤] وهم ((مجرد رمز إلى فلسفة الشعب ، أو لسان تفكيره أو صدى أحاسيسه)) [٥] ،ومنهم من يرى أن علياً بن زايد ((من الشخصيات النموذجية التي يتبدعها الشعب ليصنع باسمها حكمته أو ملاحمه)). [٦]

على هذا الأساس لدينا فريقان من النقاد ، الفريق الأول يرى أن الأمثال الشعبية نتاج الخبرة الواعية لشخصيات معينة في تاريخ الشعب اليمني ، ويحدد مؤلفين ينسب إليهم أمثالنا على وفرتها وغزارتها . والفريق الثاني يرى أن الأمثال الشعبية اليمانية نتاج الخبرة الواعية الجماعية، وينسب هذه الأمثال إلى الشعب مؤلفها ومبدعها . ونحن نرى أن الأمثال اليمانية تشكل جوقةً أو فرقة موسيقية تختلف قدرات أعضائها على الأداء الموسيقي قوة وضعفاً ، كما تختلف قدراتهم في استخدام هذه الآلة الموسيقية أو تلك ، غير أنها تصدر لحناً موسيقياً يدل على هذه الجوقة أو تلك الفرقة لا غير . ومن ثنايا هذه الأمثال تفوح روائح متعددة تحمل نكهات بيئة تعيش بمجموعها في وجداناتنا وتنفحنا بهباتها . الأمثال اليمانية الشعبية غنية وفيرة غزيرة ، متعددة المعاني والتراكيب تبعاً لتعدد حاجة الإنسان

للتعبير عن حوادث الوجود المتعددة . وهي من الناحية الفنية تتوزع ثلاثة أنواع فيما بينها : أمثال الفصحى ، الأمثال المزدوجة ، الأمثال الشعبية .

- أمثال الفصحى :-

تتخذ اللغة العربية الفصحى ثوباً لها ، وهي في أغلبها مأخوذة عن التراث العربي ، تحمل طابعاً عاماً نشم منه روائح التربة العربية على أنها وطن واحد .

- الأمثال الملحونة المزدوجة :- هي الأمثال المزدوجة ، فيها ما هو يمني خالص ، وفيها مما استجدّ في الحياة العربية المعاصرة . وهي ذات طابع إنساني متعدد ، تبرز فيها اليمن على أنها جانب من جوانب متعددة للبيئة العربية .

الأمثال الشعبية :- وهي أمثال اللغة اليومية المتداولة ، أمثال الحياة العادية ، وهي مقتطفة من حياة البيئة اليمنية وظروفها ومؤثراتها التي لا تشبه فيها سواها .

وقد يتفق المثل اليمني في مضمونه - أحياناً في تركيبه - مع غيره من أمثال الأقطار العربية الأخرى ، كونه يحقق وضعاً معيناً يحتويه هذا المثل أو تعبر عنه تلك الحكمة ، الشيء الذي يدل على أن التمزق السياسي وإقامة الحدود والسدود العارضة لم تؤثر بعد على التماثل الموجود في عناصر البيئة العربية بأشكالها المختلفة . ولعلنا نلمس أن التمييز بين النوع الأول والنوع الثاني أمر غاية في التعقيد ، إذ يتطلب الدقة في الاختيار ، والتمعن في اللغة التي يعبّر بها فنياً عن هذا المثل أو ذاك . النوع الثاني من الأمثال فتاج المزج بين أمثال الفصحى والأمثال الشعبية مما يجعل نسبته - إذا اقتضى الأمر - إلى أحد هذين النوعين تبعاً للغة الفنية التي يعبر بها عنه بالغ التعقيد . الأمثال الشعبية اليمانية تتخذ في التعبير عن نفسها الوضوح والمباشرة ، الرمز أو الكناية . من النوع الأول ((لا تتزوج من عيد أو عرس)) ، ((أحق به من شقى به)) ، ((من شقى لقى ، ومن رقد تمنى)) . من النوع الثاني ((إذا كثر الطباخين فسد المرق)) ، ((كعّف اليهودي مرق)) ، ((وقعة يهودي بحضره)) ، ((ضربه بالقدوم ومسحه بالفاره)) ، الفارة والقدوم من أدوات النجارة . ((اللي في القصيص بتطلعه الملعقه)) . ونقصد بالتعبير الواضح المباشر قدرة المثل على إعطاء مضمونه والهدف الذي يوحي به بمجرد سماعه ، فلا حاجة لقراءة ما وراء الألفاظ . فالمثل ((لا تتزوج من عيد أو عرس)) نصيحة شعبية تدل عليها

ألفاظها ومضمونها المباشر . والمثل ((أحق به من شقى به)) مفهوم شعبي تدل عليه ألفاظه والهدف الذي يشير إليه . الوضوح والمباشرة لا يقللان من قيمة المثل التعبيرية والفنية . فقيمة المثل هنا تكمن في قدرته على احتواء الحادثة واستيعاب جوانبها وتفسير مغزاها . التعبير بالرمز أو الكناية هو قدرة المثل على إعطاء مضمونه والهدف الذي يوحي به ويرمز إليه لا بمجرد سماعه وإنما بقراءة ما وراء الألفاظ . إذ إن الألفاظ بقاموسها المباشر تفقد قيمتها على أنها حامل مباشر لهذه الفكرة أو تلك ، فهي عامل مساعد في نقل تصور عميق للأفكار ليس غير . لنأخذ مثلاً ((ضربه بالقدوم ومسحه بالفاره)) . الألفاظ هنا ((ضربه ، مسحه)) مصدر هيئة أو مرة من الفعلين ((ضرب ، مسح)) ، و((الفارة ، القدوم)) من الأدوات التي يستخدمها النجارون في عملهم . لكن ماذا تعطينا المعاني القاموسية لهذه الألفاظ ؟ طبعاً لاشيء . لأن الهدف هنا نستوحيه من وراء الألفاظ . فالمثل صورة لرمز ، وتعبير عن كناية مما يفقد العلاقة المباشرة بين الألفاظ والرمز قيمتها في هذا النوع من الأمثال . فالمثل ((اللي بالقصيص بتطلعه الملعقه)) لا تعطي معاني الألفاظ القاموسية فيه القارئ هدف المثل أو مراميه القريبة والبعيدة لمجرد سماعها وإنما يستكشف القارئ هدف المثل من العلاقة الكلية القائمة بين الألفاظ وما تعطيه من معنى مباشر ومجازي والرمز الذي توحي به صورة ما وراء الألفاظ . ولنحلل هذا المثل : المعاني القاموسية ((اللي ، الذي ، القصيص ، الدست ، بتطلعه ، سوف تظهره)) ، على هذا الأساس يكون هذا المثل كالتالي في اللغة العربية الفصحى ((الذي في الدست سوف تظهره الملعقة)) . ماذا نفهم من هذا ؟ في اعتقادي لاشيء ما لم نكن قادرين على الولوج فيما وراء الألفاظ . المعنى المباشر لهذا المثل عملية طبخ ، الطباخ يغرف بالملعقة قطع اللحم الموجودة في الدست ويظل السؤال كما هو عليه ، ماذا نفهم من هذه العملية ؟ نفهم من هذه العملية تطابقها بشكل أو بآخر مع عدم خفاء الشيء أياً كان . والمثل يضرب ((في عدم خفاء الشيء)) . العلاقة إذن بين رمز المثل ؛ مضمون المثل هدفه ، والألفاظ التي تعبر بها عنه علاقة بعيدة تدرك بالربط بين المعنى المباشر للمثل وما يوحيه من صور الحياة المتعددة . فهم

هذا النوع من الأمثال يستوجب فهم البيئة ؛ ظروف حياة البيئة ، كيف يعيش أفرادها والموارد التي يعتمدون عليها في حياتهم اليومية ، أسلوب الحياة المعيشية والعلاقات الاجتماعية القائمة بين أفرادها . ولابد من معرفة قوانين السلوك الاجتماعية التي تلزم هذا المجتمع أو ذاك التعبير بها واحترامها . على هذا الأساس يكون من الصعوبة بمكان أن يدرك هذا المثل دون شرحه أناس غرباء عن هذه البيئة أو تلك ، لأن الصور التي يعبر بها المبدع الشعبي عن العلاقة بين المعنى المباشر للمثل والرمز الذي يوحي به صور مأخوذة من البيئة ، مشاهداته اليومية لها، معايشته وانغماسه فيها حتى أذنيه . على أن هناك نوعاً آخر من الأمثال لها تاريخ وجود في حادثة معينة قد تتكون في شكل حكاية أو أسطورة ، وفهم هذا النوع من الأمثال يستدعي إيراد قصة وجوده وولادته . وهو ما يؤكد الرأي القائل بظهور الفلكلور في البداية في صورة متماسكة مركبة لا ينفصل الشكل الواحد منه عن الآخر إلا في مرحلة متأخرة نسبيا ، إذ يتداخل هنا شكلان من أشكال الأدب الشعبي ، المثل والحكاية ، المثل والأسطورة .

- ٢ -

الأمثال اليمانية تختلف مناطق انتشارها باختلاف مضامينها والحياة التي تعبر عنها والأغراض التي تستوعبها ، فمنها ما هو عام وما هو خاص أو ما هو واسع الانتشار وما هو محدود الانتشار . ومن المعروف أن مناطق اليمن مختلفة كل الاختلاف من عدة جوانب؛ في المناخ والتضاريس وغير ذلك . ومن هنا تختلف وسائل عيش وحياة هذه المناطق ، فمنها ما هو قائم في حياته على الزراعة والأمطار والرعي ، ومنها ما هو قائم على البحر وصيد الأسماك ، ومنها ما هو قائم على التجارة وغيرها ، وربما تختص منطقة بنوع معين من طرائق الحياة ، ووسائل العيش ، لا تشبه فيها غيرها . على هذا النحو نجد أن لكل منطقة من هذه المناطق خصائص تميزها عن غيرها، ويكثر فيها نوع معين من الأمثال بينما يقل نوع آخر من هذه الأمثال أو يندر وجودها . ومن الأمثال ما هو مشترك عام لكل مناطق اليمن لا يختلف المثل إلاّ في اللهجة -أي في طريقة النطق ومخارجه . على هذا الأساس

يمكن أن تصبح الأمثال الواسعة الانتشار أمثالا عامة شائعة هنا وهناك ، ويمكن أن تصير الأمثال التي تعبر عن خاصية معينة في منطقة معينة ولا تتجاوز هذه المنطقة في انتشارها أمثالا خاصة . وربما كان من الأفضل أن نسمي الأمثال العامة بالأمثال الواسعة الانتشار ، والأمثال الخاصة بالأمثال المحدودة الانتشار . ولابد أن يعرف القارئ بأن الاختلاف الجغرافي لم يعد يؤثر تأثيرا مباشرا على انتشار أو محدودية هذا المثل أو ذاك ، فقد اقتربت المناطق من بعضها في العقود الثلاثة الأخيرة وأصبح التجاور أو التمازج بين الناس أقوى مما كان عليه في السابق إلى حد بعيد . فلم يعد هذا المثل أو ذاك ملكا خاص لمنطقة معينة ، إذ سرعان ما يتحول المثل الذي يخرج من هذه المنطقة أو تلك ملكا عاما للجميع في عموم مناطق اليمن ، وذلك في الأغلب الأعم . لكنه ينبغي على الباحث العلمي الدقيق أن يشير إلى مناطق انتشار المثل ، إذ إن ذلك يعطينا خصائص البيئة المعيشية ومؤثرات هذه البيئة ويكشف عن جانب من جوانبها الخفية أو الظاهرة في هذا المعنى أو ذاك . الأمثال تختلف باختلاف مناطق انتشارها تبعاً لظروف البيئة التي أثرت فيها ، والحياة التي تعبر عنها هذه الأمثال . هذه الرؤية التي تربط المثل بالحياة الاجتماعية الاقتصادية هي الرؤية الصحيحة الصائبة التي تهدي إلى طريقة صائبة في التبويب والتقسيم ، وتعطينا مفاتيح أسرار الحياة في جانب من جوانبها المعّبر عنها بهذا المثل أو تلك الحكمة . المثل نتاج الاحتكاك الجماعي ، نتاج العلاقات المختلفة بين الناس ، نتاج التداخل والترابط بين أفراد المجتمع ، وهو سر الفطرة الواعية التي تهدي إلى الصواب ولاتتخطاه إلاّ بمقدار وعي الناس بهذه العلاقات الاجتماعية . المثل معاناة ، تقويم ، قيمة إحساس الإنسان لهذه المشكلة أو تلك ، وهذه المعاناة تتمخض عن تجربة الإنسان الطويلة في الحياة واحتكاكه بالمجتمع ، إذ هو جزء يتكامل مع هذا المجتمع . وهذه الأمثال لا يمكن أن تكون بعيدة عن الصراع الأبدي بين الإنسان ونفسه ، بين الإنسان ومجتمعه ، بين القوى الخفية الظاهرة في الحياة والطبيعة بمختلف اتجاهاتها ونواحيها . هذا الصراع هو حاصل حياة هذا الإنسان . هذه الطريقة في جمع الأمثال وتبويبها تعتمد المضمون -

المحتوى - المعنى أساساً لتبويبها وترتيبها كي يسهل على القارئ فهمها ، والتعرف على أسباب انتشارها. على أن الشكل – اللغة – طريقة النطق ، له أهميته العظيمة في تبويب الأمثال وترتيبها ، فتركيب المثل واللهجة أو مخارج الألفاظ – النطق –وطريقة التعبير تعرفنا على مناطق انتشار هذا المثل . ونحن نجد في اليمن لهجات محلية مختلفة باختلاف مناطقها، وربما كان وقوفنا على هذه اللهجات المحلية ومعرفتنا بمناطق انتشارها يمكننا من التعرف على منابع الأمثال ومصادرها . وقد ينتشر المثل الواحد بعدة لهجات محلية نتيجة الوعي المشترك والإحساس العام الذي يتقاسم واقع حال هذا المثل والتجربة التي يعبر عنها ، فينسب كل مثل إلى مناطق لهجاته المحلية مستوعبين خاصيته المعنوية -المضمون -المحتوى .

إذن هناك وجهة في جمع الأمثال وتبويبها - الشكل والمضمون وهي أقرب الوجهات إلى الدقة العلمية من غيرها .

خصائص البيئة ونكهتها التي تفوح في المثل هي التي تدل على مناطق انتشاره وتدل على منابعه ، ولا يعني هذا أن المثل ينحصر في المنطقة التي نبع منها ويعبر عنها ، بل هو ربما يتجاوزها إلى كل مناطق اليمن ويصبح واسع الانتشار عاماً ، ذلك لأن وسائل المواصلات بأشكالها المختلفة وتنقل المواطنين في المناطق المختلفة ، تداول أعمالهم المشتركة ، احتكاكهم الواحد بالآخر أدى إلى انتشار هذا المثل أو ذاك . من هنا قد نجد مثلاً بلهجة محلية لمنطقة ما ينتشر في منطقة أخرى ، إذ إن خصوصية النكهة ومحلية المثل لا يمنعه من عمومية التعبير ، فالتجربة الإنسانية تصب في وعاء الجميع ، إذ إن العادات والتقاليد ووسائل الحياة المعيشية والمؤثرات الاجتماعية وظروف البيئة الموضوعية والذاتية لا تختلف من منطقة إلى أخرى إلاّ بمقدار .

- ٣ -

على هذا الأساس يكون لدينا منهج نعتمده في جمع الأمثال وتبويبها ليسهل على القارئ فهمها واستيعاب اتجاهاتها وإدراك مناحيها العامة ، هذا المنهج في اعتقادي يكمن في الطرق التالية : -

الطريقة الأولى : اعتماد مضمون الأمثال أساساً في عملية التبويب وتوزع هذه الأمثال على أساس ما تحويه من مضمون اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو ثقافي دون أن نقيم للهجة التي نعبر بها عنه أية قيمة تذكر . هذه الطريقة في جمع الأمثال وتبويبها لها مخاطرها التي قد تؤدي إلى الخلط في مضمون هذه الأمثال، فقد ينسب مثل ما في باب معين بينما هو لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى هذا الباب، إذ ليس من السهولة أن تعطي الأمثال نفسها للدارس والقارئ. ومن محاسن هذه الطريقة أنها تقف بالدارس والقارئ على نوازع المجتمع الحية في إدراك مغزى الحياة ومحاولته التغلغل في هذا المغزى أو ذاك ليصل معه إلى معرفة كنه حقيقة الوجود

الطريقة الثانية : اعتماد الشكل -اللهجة التي نعبر بها عن المثل أساساً في عملية التبويب دون أن نقيم للمضمون أية قيمة تذكر . وتوزع الأمثال في أبواب بحسب مناطق انتشارها ((أمثال عدن ، أمثال صنعاء ، أمثال العدين ، وغيرها)) .

ومخاطر هذه الطريقة أن الفرق بين اللهجات بحسب مناطق الانتشار قد لا يشكل هوةً واسعة ، مما يصعب أحياناً نسبة هذا المثل إلى منطقة معينة فيقع الخلط بين اللهجات المختلفة في المناطق المختلفة . هذه الطريقة تستدعي دارساً متمكنا من لهجات اليمن عارفاً بجملة خصائصها العامة . ومن محاسن هذه الطريقة أنها تفتح أمامنا صور الحياة المختلفة في مناطق محددة وتكشف عن جوانبها الجوهرية.

الطريقة الثالثة : اعتماد الحروف الأبجدية أساساً في عملية التبويب ، وتوزع الأمثال فيها على أساس الحرف الأول من الكلمة الأولى في هذا المثل أو ذاك . وهي أسهل الطرق وأقربها إلى عقلية كثير من الباحثين الذين لا يريدون تجشم عناء الطريقتين السابقتين . وليس في هذه الطريقة من مخاطر أو محاسن .

الطريقة الرابعة : اعتماد الموضوعات والمعاني الإنسانية أساساً في وضع الأمثال داخل أبواب عامة متقاربة في المعنى والموضوع ، تتفرع عنها فصول خاصة أكثر تقاربا في المعنى و الموضوع ، وهو الشيء الذي يمكن أن يسهل على القارئ الإطلاع على أمثال معينة في مواضيع خاصة ، يستطيع أن يستخدمها متى ما أراد في هذا الموضع أو ذاك

أو في هذا المعنى أو ذاك . وهي طريقة تكلف الباحث الكثير من عناء البحث والكثير من مصاعب التبويب أو الترتيب ، لكنها مفيدة كل الفائدة من عدة جوانب . لعل أهمها أنها تضع يد القارئ مباشرة على الأماكن التي يمكن أن نضرب بها هذا المثل أو ذاك.(٧)

- ٤ -

وينبغي أن نقدم هنا بعض الأسئلة : هل من الممكن أن نتعرف على تاريخ نشأة الأمثال ، وأن نقف على أقدم نصوصها ؟ وهل يمكن ترتيبها زمنياً من حيث أسبقيتها ؟ يجيب عن هذا السؤال الباحث اليمني الأستاذ إسماعيل بن علي الأكوع حيث يقول :((قد كنت أود أن يكون لدينا من المراجع والوثائق ما يمكننا الرجوع إليه في معرفة أقدم نصوص الأمثال وتأريخ نشأتها ، وتداول الألسن لها بصورة قاطعة ، والتمييز بين قديمها وحديثها ، ولكن الذي لا شك فيه ولا مراء أن كثيراً من هذه الأمثال قديم ، يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الإسلام ، لاسيما فيما يتعلق بالزراعة ومواعيد حرث الأرض وبذرها ، ومواقيت ريها وحصادها ، وارتباط تلك المواقيت بالفصول الأربعة)) .(٨)

لهذا يبدو من الصعب وضع الأمثال الشعبية في جدول زمني معين تستكنه منه تطور هذه الأمثال ونشأتها وعوامل هذا التطور وهذه النشأة ، خاصة أن الجزء التاسع من الإكليل للهمداني لا يزال مفقوداً . غير أن تصوراً معيناً لنشوء وتطور هذه الأمثال لا بد منه .

ونحن نؤكد على أن كثيراً من الأمثال اليمانية قديمة قدم الحياة ، ولدت مع الإنسان منذ أن دعته الحاجة إلى الكلام مع غيره من أبناء جنسه ، ودعته الحاجة إلى العمل وعلاقات هذا العمل الاجتماعية ، تداولتها الألسن حتى وصلت إلينا بصيغتها الحالية ،أثرت فيها عوامل التطور الاجتماعي والتغيرات التي طرأت على اللغة ولهجاتها المحلية ، وتعمل
الحياة بمعطياتها الجديدة على إمداد الأمثال الشعبية اليمانية بشرايين جديدة . تتطور الحياة ويصاحب هذا التطور تطور في الفنون والآداب وتتطور مفاهيم

الإنسان في الحياة ومعطياتها . ونحن نرى في الأدب الشعبي حلقة كاملة ومتممة داخل حلقات الأدب والفن ، يواكب هذا التطور ويتفاعل مع أشكال الحياة الجديدة.

استمرارية الوجود وحركته الدائبة تخلق أشكالاً جديدة في التعبير وتسبغ على الفن والأدب ألواناً وظلالاً جديدة تدفع بهما لمواكبة مدّ الحياة المتواصل فتظهر القصة الجديدة والرواية الجديدة ويبرز المثل الجديد الذي يعبر عن هذه الحادثة أو تلك الواقعة المعبرة عن معنى جديد من معاني الحياة . على هذا الأساس يبدو هذا التفاعل الحي بين الأدب والحياة ؛ التأثير المتبادل المتكافئ أحياناً بين الأدب والمجتمع . والفلكلور باعتباره المرآة الصادقة العاكسة لهذا التأثير المتبادل تتجلى فيه بوضوح هذه العلاقة والفلسفة القائمة لتحديد هذه العلاقة . ومن هنا تظل الفنون الشعبية حيةّ بما تمثله من هضم حياة المرء بما يستجد فيها من معطيات لا تزال ترفد الإنسان ، وتضيف إلى معرفته آفاقاً هو أحوج ما يكون إليها ، عندما يشعر أن الزمن توقف في مكانه وأن كل ما حوله جامد غير متحرك . عوامل التطور تفعل فعلها في كل أشكال الوجود المختلفة ولا تقف عند حدٍ معين، فهي تؤثر على الأدب والفن أيضاً ، ولهذا يصعب علينا أن نحصل اليوم على مثلٍ شعبي غير فصيح لفترة ما قبل الإسلام بلهجته التي روي بها وسمع آنذاك استمرارية الحياة وعوامل التطور تفرض نفسها على الفن والأدب بأشكاله المختلفة . والأدب الذي لا يواكب هذا التطور يدفع نفسه إلى الفناء .

المثل إذن يواكب هذا التطور ، ويستوعب جوانبه المختلفة ويتشرب بالحياة الجديدة ، وهو بهذا يضيف إلى حياته دماءً جديدة ، تحببه إلى القلوب ويحتل مكانه في حياتها . ويظل بعد هذا مصدراً لمعرفة كثير من حقائق المجتمع .

- ٥ -

الأمثال اليمانية غنية كل الغنى بدليل التعبير عن الحادثة الواحدة ، والواقعة الواحدة بعدة أمثال مختلفة التركيب متفقة الدلالة على حادث معين . وقد تتسع هذه الدلالة وتضيق في مستوى المغزى الذي توحي به مرادفات الأمثال اليمانية الشعبية .

مرادفات الأمثال عندنا غنية ، فنجد المثل الواحد وما يرادفه عدة أمثال أخرى تختلف في صياغتها لا غير .لنأخذ هذه الأمثال دليلا على هذا الترادف : -

- (يللي تغمزي بالغدره) .
- (مغني جنب أصنج) .
- (اللي في البحر ما يخاف طفشه) .
- (المبلول ما يهمه الطرش) .
- (إذ دخلت بلاد العور أعور عينك) .
- (مع العوريا شقراء) .
- (عمياء تخضب مجنونه) .
- (يبول في نيس) .
- (ينفخ في رماد) .

هذه الأمثال اليمانية في مضمونها تحمل مغزى واحداً،وتعبر عن قضية واحدة - مع فارق في الظلال والألوان من المعاني والأفكار - وهي عدم جدوى الشيء ، وعدم وضع الأمور في نصابها .

ونحن نجد في كل مثل من هذه الأمثال ألوانا من المعاني تختلف عن غيرها من الألوان في كل مثل على حدة مما يعطي لكل مثل منها قيمته الخاصة ويكشف عن أماكن استخدامه الخاصة ، ويجعلنا نرى في تركيب كل مثل ظلالاً معينة من الأفكار تختلف عن غيرها من الظلال في الأمثال الأخرى ، مجموعة وفي كل مثل على حدة . ومن الواضح في هذه الأمثال أن بعضها يماثل من عدة وجوه أمثال الفصحى ، (ينفخ في رماد) - (ولكن ضاع نفخك في الرماد) ، (مغني جنب صنج) - (ولكن لا حياة لمن تنادي) ، (يبول في نيس) - (إنما الناس سطور ، كتبت لكن بماء) ، (اللي في البحر ما يخاف طفشه) ، (المبلول ما يهمه الطرش) (أنا الغريق فما خوفي من البلل) ، (من يركب البحر لا يخشى من الغرق) . هذا الاقتباس من الفصحى ، أو التحوير عنها ، أو التوافق في التجربة الإنسانية الواحدة التي تعبر بالأساس عن معاناة إنسانية عامة ، هي التي تسبغ على المثل نفسه تعدد

الظلال وتنوع الأفكار ، وهي التي تصل الإنسان بأخيه الإنسان في كل مكان وزمان .إن تطابق كثير من الأمثال العربية في مختلف الأقطار رغم اختلاف اللهجة ، وتطابق هذه الأمثال مع غيرها من الأمثال العالمية في محتواها ومضمونها هو الذي يعطي المثل حيويته وقدرته على البقاء . من هنا قد لا نتفق مع الرأي القائل بأن مصدر الأمثال العربية هي اليمن ، [٩] مستنتجاً ذلك من التشابه الموجود في محتويات الأمثال ومضامينها ، راداً ذلك إلى هجرة الشعب اليمني وتجواله في مختلف الأقطار العربية ، إذ إن التشابه الموجود في معاني الأمثال ، والتوافق في الفكرة إنما يعبر عن إنسانية المثل ، وتوافق التجربة الإنسانية التي تدفع بهذا المثل أو ذاك إلى حيز الوجود . ذلك لأن ظروف الحياة العربية لا تختلف فيما بينها إلاّ بمقدار استقلالية الخصائص المحلية لكل قطر منها . وهي لا تشكل حداً فاصلاً في موضوع الفكر والثقافة ، والحاجة الإنسانية للتعبير عن معاناة الإنسان العربي أياً كان موطنه . وإذا كنا نفتقر إلى نوعية الأمثال التي انتشرت في فترات ما قبل الهجرة اليمنية الأولى فكيف نجوّز لأنفسنا القول : بأن اليمن مصدر الأمثال العربية . على أنه يمكن أن نستنتج من هذا التوافق والتشابه في معاني الأمثال ومضامينها أن تجارب الإنسان العربي وخبراته تصب في مجرىٍ واحد ، واحتكاكه بالحياة وفهمه لها يكاد يتفق في الأعم الأغلب .

ويرى القارئ الحصيف أن الأمثال اليمنية (واقعية) ، بمعنى أنها تتخذ الواقع هدفاً للتعبير الفني ، وتستغل البيئة من أجل التشكيل الفني وتشكل الفن من ظواهر الطبيعة ومظاهر البيئة ، فأدوات التعبير هي الحياة اليومية ، وهي في أكبر صورها الأشياء المحيطة بالبيئة ، منها ما منحته الطبيعة ، ومنها ما صنعته يد الإنسان ومنها ما هو جوهر في تركيب الإنسان أو الطبيعة نفسها .

لنأخذ مثلاً على ذلك (مغني ، أصنج ، يغمز ، الغدره ، عميه ، تخضب ، يبول ، نيس ، رماد)،وغير ذلك من الأشياء التي يعانيها الإنسان ويعايشها ، ويتصل بها اتصالاً وثيقاً على مدى حياته . من هنا نحن نرى أنه قلّما نجد أمثالاً تختلف أدواتها التعبيرية اختلافاً جوهريا عن حقائق الحياة وملامح البيئة وخصائص

الإنسان ، يستحضرها الإنسان اليمني من عالم آخر .. وإنما هي الأشياء التي يعرفها حق المعرفة ، وتعيش في وجدانه عالماً لا ينفصل عنه . هذه الواقعية في أمثالنا تدل على الالتصاق العميق بالبيئة ، كما تدل على بساطة المعبر الشعبي ، واتساع قلبه وعقله لصور البيئة المختلفة . وليست الأدوات التعبيرية (اللفظة) وحدها واقعية ، وإنما مضامين الأمثال نفسها واقعية ، بمعنى من معاني تعبيرها عن مختلف أشكال الحياة . هذه واقعية محببة إلى النفس ، لأن البيئة تعطيك نفسها في صورتها التي هي عليها ، فلا ظلال ولا ألوان ولا مسوح . وهي واقعية تمنح المثل قدرة على أن يكون لوحة متكاملة تجذب إليها الأجيال القادمة .

هذه القدرة على تمثيل خصائص البيئة واستيعاب أشكالها المختلفة (الواقعية) تساعدنا على كشف هوية المثل ومعرفة جوانب الحياة التي نحددها على أساس هذه الخصائص وكيفية انعكاسها في هذا المثل أو ذاك .

- ٦ -

عل هذا النحو يبدو أننا نستطيع أن نحدد ثلاثة أنواع من الأمثال . هي : -

(١) أمثال إنسانية .

(٢) أمثال قومية .

(٣) أمثال محلية .

- الأمثال الإنسانية هي ذلك النوع من الأمثال التي تحمل طابعاً من الخصائص غير محدد أو موقوف على بيئة بعينها . وإنما يمكن أن يكون هذا المثل محلياً أو قومياً أو إنسانياً ، بمعنى أن هذا المثل ليس خاصاً بشعب معين أو مجتمع معين أو بيئة معينة .

ولا نقصد بالإنسانية الصفة الأخلاقية وإنما نقصد الصفة العالمية التي تجعل من المثل عاماً أي ملكاً للتجربة الإنسانية . فعندما نقول (مال ما يشبه راعيه حرام) كل الخصائص اللفظية في هذا المثل - ما عدا اللهجة أو اللغة - لا تخص شعباً محدداً ، ولا تحمل نكهة متفردة لبيئة بعينها . وليست الخصائص اللفظية وحدها ذات طابع عام ، وإنما المعنى ومطابقته لمقتضى الحال عام أيضاً . فهذا المثل

له ما يماثله في الأدب الشعبي الروسي ، وفي الأدب الشعبي الأذربيجاني وفي كثير من أقطارنا العربية . ويمكن أن نأخذ من أمثالنا الفصحى شواهد عدّة (داوني بالتي كانت هي الداء) ، (عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ، فكل قرين بالمقارن يقتدي) ، (من حفر حفرة لأخيه وقع فيها) هذه الأمثال قومية محلية لها ما يماثلها من الأمثال في آداب الشعوب الأخرى مما يسبغ عليها الطابع الإنساني العالمي .

معاني التجربة الإنسانية تمنح هذا المثل أو ذاك الطابع العالمي وتميزه عن الأمثال القومية والأمثال المحلية . فالتجربة هنا هي المعول عليها في تقويم الصفة الأساسية للمثل . على سبيل المثال : كيف يمكن أن يحفر المرء حفرة لأخيه ويقع هو نفسه فيها ، تجربة يمكن أن يفهمها المرء محلياً وقومياً وعالمياً ، ويدرك الصورة التي تكمن في أعماق هذه التجربة . على هذا الأساس يكون هذا المثل إنسانياً (عالمياً) . و إذا قلنا (وقعة يهودي بحضرة) ، (كعف اليهودي مرق) ، فإن ذلك يستدعي فهم هذين المثلين وفهم جوانب أخرى اجتماعية تخص بيئة محددة . فقد قيل لي إن اليهود في عدن كانوا لا يستطيعون شرب المرق ، بل كانوا يمقتون ذلك ، ولهذا أن (تكعف اليهودي المرق) ؛ أي أن تجبره على الشرب على مضض منه أمر لا يستطيع فهمه إلاّ أبناء البيئة التي ولد فيها هذا المثل . بمعنى أنه لا بد من معرفة جملة من الحقائق حتى تستطيع أن تدرك معنى هذا المثل والمناسبة التي تستدعي استخدامه فيها . المثل (وقعة يهودي بحضره) يمكن أن يكون محلياً وقومياً ، إذ إن (الحضرة) من الطقوس الخاصة بالمسلمين على ما أعتقد ، وكم هو ثقيل على قلب اليهودي أن يجد نفسه في (حضرة) مصادفة ، أو دون قصد منه .

على هذا الأساس يكون هذان المثلان محليين ، غير أنه يمكن أن نضم بعض جوانب من المثل ((وقعة يهودي بحضره)) إلى الإطار القومي . ويمكن أن نقول : إن الترجمة نقل الأمثال إلى اللغات الأخرى تساعدنا على كشف هوية المثل ومعرفة خواصه . إذ إن المثلين ((كعّف اليهودي مرق)) و ((وقعة يهودي بحضره)) من الصعب ترجمتهما إلى اللغات الأخرى ، وإذا قدرنا على ترجمتهما إلى اللغات الأخرى فهل سيفهم القارئ الأجنبي منها شيئاً يذكر ؟ هذا هو المحك ، وهو المعول

عليه في إدراك نوعية الأمثال وفهم مصادر انتشارها . ويجب أن لا نخلط بين خصائص اللفظة المحلية وخصائص التجربة المحلية ، فقد تحمل اللفظة خصائص محلية ولكن التجربة - المضمون - تحمل خصائص قومية أو إنسانية . فهناك كثير من الأمثال اليمانية ، رغم خصائص اللفظة المحلية ، لها ما يماثلها من أمثال الشعوب الأخرى . لنأخذ مثلاً ((اللي في القصيص بتطلعه الملعقه)) ، ((مع البل يا بعير)) . المثل الأول يضرب في عدم خفاء الشيء ، ويضرب المثل الثاني في التساوي في المصير . وهما مثلان يجدان ما يقابلهما في اللغات الأخرى .

المماثلة والتشابه مع أمثال الشعوب الأخرى هنا يكونان في القصد والهدف الذي يرمي إليه المثل اليمني وما يماثله من الأمثال الأجنبية الأخرى ، في الفكرة العامة التي نستنتجها من مجموع هذا المثل اللفظي، على خلاف الأمثال التي تتماثل حرفياً عند ترجمتها إلى لغتنا العربية . هذا النوع من الأمثال أيضاً نطلق عليها الأمثال الإنسانية .

الأمثال القومية - هي ذلك النوع من الأمثال التي تنتشر في الأقطار العربية المختلفة تحمل في أعماقها روائح البيئة العربية كشعب واحد رغم الحواجز والسدود المصطنعة ، وهي تعبر عن معاناة الإنسان العربي في كل أطوار حياته العامة والخاصة . فقد تختلف الأزمنة وتتباعد الأمكنة وتتعدد اللهجات المحلية ، لكن التجربة مع هذا تظل قومية ، بمعنى قدرتها على التعبير الجماعي وشموليتها التي تجعل هذه الأمثال لوحة عاكسة للمجتمع العربي وصورة صادقة له . وهذا لا يمنع من أن تكون الأمثال القومية ذات طابع إنساني عالمي كما هي في الوقت نفسه ذات طابع محلي يعمم التجربة ولا يحصرها في بيئة معينة .

من هذه الأمثال ((أح من السكوتى موتي ، ومن الرحيمة يانا)) [١٠] ، ((أبعد من أهلك يحبوك ، وجيرانك يفقدوك)) ، ((يا رايح كثر من الفضائح)) .

هذه الأمثال قومية محلية تنطلق من إطار واحد ومن تجربة واحدة ، أساسها معاناة العربي ومصيره وآماله وتاريخه المشترك ، إذ هي تعطينا طابعاً عربياً

متفرداً في تعبيره عن مجتمعنا . على أن هناك من الأمثال ما هو خاص بالشعب العربي وحده . لنأخذ مثلاً ((إن سبرت فمره وحمار ، وإن بطلت فهدار في هدار)).[١١]

في هذا المثل تجربة محلية غنية نتعرف عليها من الحكاية التي تروي أصل هذا المثل ، ويمتلك هذا المثل ما يماثله في الأقطار العربية الأخرى ، مما يعطي المثل طابعاً قومياً في التجربة لمطابقته مقتضى الحال هنا وهناك . ولعل هذه التجربة تنحصر في الإطار المحلي والقومي ، كون فهم هذا المثل يتطلب فهم دواعي الحادث ومفارقاته ، مما يصعب على القارئ الأجنبي هضم مرماه والغرض الذي يضرب له . وإن وفقنا في ترجمته يصبح مجرد كلمات لا تعطي القارئ الأجنبي أكثر من معانيها القاموسية .

الأمثال المحلية -هي تلك الأمثال المنتشرة في الوسط الاجتماعي الوطني ، وهي تشكل لوحة صادقة متكاملة للبيئة اليمنية ، يستنتج القارئ الحصيف منها جوانب متعددة لتجربة يمنية ناضجة حيث تتداخل الصور التعبيرية والألفاظ في عمل فني رائع يجسد الطابع المحلي اليمني .

لنأخذ مثلاً ((ابرد يا مرق لما يجيك اللحوح)) و ((إذا قد اليهودي محنا اذرا ، ولا عد تأنى)) . في المثل الأول ((مرق ، لحوح)) أدوات مستعارة من البيئة المحلية ، لها ما يماثلها في أقطارنا العربية ، ولكن كيف يبرد المرق وكيف يجيء إليه اللحوح ؟ تظل صورة تعبيرية يمنية في كل جوانبها . أما المثل الثاني فهو أكثر تعبيراً عن خصائص البيئة المحلية وأدواتها المستقلة ومعناه ((أنه إذا تحنأ اليهود في عيدهم ، فعجّل ببذر الأرض، فإن العيد الذي يتحنأ اليهودي فيه يصادف موعد التلام ((البذار)) من كل عام، وإياك أن تؤجل بذر الأرض، لأن المحصول الزراعي يتأثر كثيراً بذلك فيقل)).[١٢] في هذا المثل تجربة يمنية خاصة تفسر علاقة الإنسان اليمني بالأرض ، وتعبر عن دقة ملاحظته لظواهر الحياة المختلفة . وهو يبرز جانباً من جوانب التجربة والخبرة اليمنية ، فالربط بين اليهودي الذي يتحنأ وبين موعد البذار صورة تعبيرية لا يفهمها إلا اليمنيون كما أعرف .

ويرى القارئ أن تمييز الأمثال اليمنية عن الأمثال القومية والإنسانية يتطلب معرفة عميقة بتقاليد الشعوب وعاداتها وديانتها والطقوس التي تؤديها في مناسكها وفي المناسبات الوطنية الأخرى . على أنه لابد أن نلاحظ أن الصور التعبيرية تساعدنا كثيراً على فهم المثل ووضعه في مكانه الصحيح ، وتبين نوعية هذا المثل أو ذاك وكيفية استخدامه . ونقصد بالصور التعبيرية ذلك الأسلوب الفني الذي يتخذه الجمهور المبدع في تركيب المثل لإيصاله للجمهور المتلقي . والصور التعبيرية في أدبنا الشعبي واقعية مأخوذة من البيئة المحلية ولا تتعدى أطرها . لنأخذ مثلاً ((ما أكله كبشك هو لك)) كيف يمكن أن نفهم الصورة التعبيرية الآتية ﴿ كل ما يأكله كبشنا ويرميه في جوفه يصبح ملكنا ﴾ هذه الصورة لكي نفهمها لابد من معرفة جملة حقائق تتعلق بالكبش أولاً وبنا ثانياً . فهذا الكبش ملكنا ومصيره معروف إما أن يباع وإما أن يؤكل ، وفي الحالتين نحن المستفيدون ؛ فعندما يأكل الكبش ويشبع يزداد حجمه وبهذا يدر ربحاً أكبر إذا أردنا أن نبيعه ، و إذا أردنا أكله كان وزنه من اللحم أكثر . هذا المثل يضرب لمن يقوم بواجباته نحو عائلته وممتلكاته أو الممتلكات العامة على أكمل وجه . لنأخذ مثلاً آخر ((أنت وحدك اللي شتزمط)) هذا المثل اليمني لكي يفهمه القارئ العربي أو الأجنبي لابد من معرفة الحكاية التي تروى في أصل وجوده . فقد زعم أن ((طبلاً)) كان كثير السفر إلى عدن اجتمعت النساء حوله وطلبن منه أن يجلب لهن من عدن أشياء مختلفة على أن يتم الدفع بعد عودته ، فكان الطبل يهز رأسه علامة على الرضا ، وفي الطريق صدفه طفل وطلب منه أن يجلب له ((زماطة)) أي بالونة وأعطاه قرشين ، اقترب منه الجمال هامساً في أذنه ((أنت وحدك يا بني اللي شتزمط)) . من هنا يتضح لنا أن فهم هذا النوع من الأمثال على أساس تركيبه اللفظي يتعذر مطلقاً على السامع والقارئ ما لم يكن على معرفة واسعة بأحوال البيئة الخاصة ، وإدراك عميق للصور التعبيرية الكامنة فيها ، واطلاع على الحكاية التي تروى في أصل وجوده .

الصور التعبيرية في الأمثال اليمنية غير متعمدة ولا مقصودة لذاتها ، وإنما هي تعبير عفوي عن مختلف أشكال البيئة ، وهي في اعتقادي قد بلغت مستوىً راقياً من الحبك الفني والأداء التصويري التعبيري الخلاق . ففي أعماق بعض الأمثال تعيش حكاية مؤلفة من عدة صور تعبيرية ، ينطلق فيها العقل الشعبي إلى رحاب الفن الأوسع ، وفي أعماق الصور التعبيرية تعيش الألفاظ الحية الغنية بالدلالات العميقة التعبير عن مناحي الحياة المختلفة . وفي هذا الجانب يبدو التعبير الشعبي حافلاً بالألفاظ المعبرة التي تعطينا بمجرد سماعها أبعاداً واسعة لنقل صورة ما من الواقع . لنأخذ مثلاً ((كعّف اليهودي مرق)) - لفظة ((كعف)) وتعني أن يصنع الإنسان الشيء وهو ضد إرادته أو أن يقبله على مضض منه ، أو على وجه الدقة أن تجبره على عمل شيء هو لا يرضى به على الإطلاق .

- المثال الآخر ((وقعة يهودي بحضرة)) - لفظة (وقعة) هنا دلالة على السقوط المؤلم اللاإرادي في حمأة الشيء . ومن أمثال ذلك كثير جداً في أمثالنا الشعبية .

خلاصة القول إن الأمثال اليمنية الشعبية ظاهرة اجتماعية فنية رفيعة يكمن فيها الذوق الشعبي الرفيع في تفهمه أوجه الحياة المختلفة ، وفي تلمسه الصائب لجمال الموجودات ، وفي تغلغله العميق في ظواهر الحياة المختلفة وفي تعمقه مظاهر الحياة المتعددة .

- ٧ -

ويصح لنا بعد هذا أن نقسم الأمثال اليمانية من وجهة استخدامها في التعبير عن مناحي الحياة المختلفة ومطابقتها لمقتضى الحال إلى قسمين :

١ - واسع الاستخدام ٢ - محدود الاستخدام

١ - واسع الاستخدام : -

هي تلك الأمثال التي نستطيع أن نستخدمها في عدة حوادث تختلف في جزئياتها وتفاصيلها ، وتلتقي في ناحية من نواحي الحياة المختلفة . فقد تختلف الحادثة ويتشعب الأداء في فهم هذه الحادثة أو تلك ، لكننا نعطيها بعداً واحداً

ونرمز لها بمثل واحد يستوعب جملة ما تهدف إليه الحادثة . لنأخذ مثلاً على ذلك ((من تزوج أمنا هو عمنا)). ولعل هذا المثل يضرب من أجل التسليم بكل ما هو موجود ومن أجل الرضوخ للواقع وعدم مقاومة الحال وتغييره نحو الأفضل . هذا هو جوهر المثل ومضمونه والدلالة التي تكمن في أعماقه. على أن مواقع استخدام المثل كثيرة لا تحصى ؛ إذ إن قدرته على مطابقة مقتضى الحال واسعة ، فيمكن أن نستخدمه في مجالات الحياة الخاصة والعامة ، ولا يصح أن نحصره في مجال محدد . ولنأخذ مثلاً آخر ((فرحنا بالأعمى يوانسنا فزز عيونه يفجعنا)) ، هذا المثل يضرب لمن يخيب ظنه في الشيء . هدف المثل ودلالته واضحة لنا وقيمة استخدامه في التعبير لا غبار عليها . غير أن مواقع استخدامه لا تعد ولا تحصى ؛ واسعة باتساع أفق الحياة ورحابتها . لنأخذ مثلاً آخر ((السارق برأسه قشاشه)) ويضرب هذا المثل للكشف عن الشخص المعني بأمر ما . على أن مواقع استخدامه لا يمكن حصرها في إطار معين . من هنا نرى أن الأمثال الواسعة الاستخدام لها قيمتان ؛ القيمة التعبيرية والقيمة الاستخدامية . ولعل القيمة التصويرية هي الأساس الذي تنبني عليه المفاهيم المختلفة لهذا المثل أو ذاك .

القيمة التعبيرية هي الهدف الذي يرمي إليه المثل ويحققه في قدرته على التعبير عن حادثة معينة . وهي قيمة ذات إطار واحد . أما القيمة الاستخدامية فهي قدرة المثل على مطابقة مقتضى الحال في عدة حوادث مختلفة الشكل متقاربة الجوهر . ولعل هذا يعني أن القيمة التعبيرية ذات جانب واحد . لكن القيمة الاستخدامية تمتلك جوانب متعددة . وهذا لا يعني تناقضاً في المثل بقدر ما يعني اتساعاً فيه وغنىً يكسبه القدرة على استيعاب نواحي الحياة المختلفة بشمولية ووضوح رؤية .

٢ - **محدود الاستخدام :** -

وهي الأمثال التي ينحصر نطاق استخدامها في إطار معين ولا تتعداه ، فهي تملك قيمة تعبيرية وقيمة استخدامية تتساوى في مجموعها إلا فيما ندر . لنأخذ مثلاً ((عقله بركبته)) ، ((يده خلقت قبله)) ، ((يده طويل)) .

المثل الأول يضرب في الغباء ، والمثل الثاني للذي يستخدم يده في كل الأمور والمثل الثالث للسارق . فالقيمة الاستخدامية لا تتعدد هنا بتعدد جوانب الحياة ، وإنما على العكس تلزم نفسها التعبير عن واقع معين لا سواه . هذا النوع من الأمثال يعين القارئ على فهم مضمون المثل ومواقع استخدامه بمجرد السماع المباشر . فهو يقتضي الدقة في الاستخدام والإحكام في الرمز والتعبير ، فالمثل ((عقله بركبته)) يستخدم فقط في الحادثة المخالفة للعقل السليم ، والمثل يده خلقت قبله يستخدم في الحادثة التي تستخدم فيها اليد بدلاً عن المنطق ، ويكون استخدام المنطق فيها أولى . والمثل ((يده طويل)) يستخدم في حالة سرقة لا غير . ولابد أن نشير هنا إلى أن هذه النماذج الثلاثة التي ضربناها هي أقرب إلى التعابير الشعبية منها إلى الأمثال . وينبغي دائما أن نحدد الفرق بينهما . هذه الأمثال تمتلك صبغة واحدة تعطي لوناً واحداً . غير أن الأمثال واسعة الاستخدام تحوي صبغات متعددة تعطي مختلف الألوان والأشكال . ولعل الأمثال المحدودة الاستخدام تحتفظ بقيمتها التعبيرية أو التصويرية ومستواها الفكري والاجتماعي المبدع ولا ينقص فيها أنها محدودة الاستخدام .

- ٨ -

ويمكن أن نقسم الأمثال من جهة الفكرة ، والطابع الإنساني والمزاج الذي تحمله لخلق معنى من معاني الحياة وقيمتها في أعماق الإنسان ، والدافع الذي تستوحيه في خلق أفكارها ، والاتجاه الذي تقتضي أثره للتعبير عن هذه المعاني والقيم والمغزى الذي ترمي إليه إلى نوعين : ١ - إيجابية . ٢ - سلبية .

- الأمثال ذات المغزى الإيجابي هي ذلك النوع من الأمثال التي تخلق في الإنسان الفكرة الصائبة والهدف الإنساني النبيل ، وتوقظ فيه الإحساس بقيمة الحياة الشريفة ، وتنزع به إلى تحقيق غايات الإنسان القصوى في إعادة تركيب الحياة على أساس عادل وحر . وهي تبعث في الإنسان جوانب الحياة الكريمة وتحببها إليه ،وتنفره من جوانبها الرديئة ولا تسلمه إلى الاستسلام والتخاذل ، وإنما تعطيه دفقات حارة من الحياة وتبعث فيه أنفاسها الدفيئة . وقيمتها تكمن في

كشفها عن جوانب الحياة القويمة للإنسان وتبصره بطرائق البحث عنها . لنأخذ مثلاً ((من وكن على خسار جاره يبس)) و((من شقى لقى ، ومن رقد تمنى)) و((إذا قد اليهودي محناً اذرا ولا عد تأنى)) ، هذه الأمثال إيجابية بمعنى من معاني دفعها الإنسان إلى إعادة خلق نفسه والعالم المحيط به . المثل الأول يحفز الإنسان إلى العمل مصدر وجوده ؛ إذ إن الركون إلى الخمول والاتكال على الآخرين لايخلق في الإنسان إلا عجزا يدمره ، ويسحق كل قواه ويجعله عبرة لمن اعتبر . والمثل الثاني شبيه إلى حدٍ ما بالمثل الأول وهو يبني في الإنسان الرجل العامل المجد في عمله . والمثل الثالث يطفح بالجد والمثابرة فهو يخلق في الإنسان حب المبادرة وعدم انتظار الفرصة ، وإنما على الإنسان أن يخلق هذه الفرصة والظروف المواتية لها . وهو يحمل طابعاً إيجابياً كونه يجعل من الإنسان بانياً لا هادماً ، ويحمله على إرساء دعائم الحياة المختلفة . هذه الأمثال التي تحمل الطابع الإيجابي في أدبنا الشعبي الشفوي كثيرة تشمل كل جوانب الحياة بأشكالها المختلفة .

الأمثال ذات المغزى السلبي - هي ذلك النوع من الأمثال التي تخلق في الإنسان التردد والحيرة والاستسلام ، وتبصره بجوانب الحياة الضيقة والضعيفة ، وتحصره في نطاق ضيق من الوجود اللامتناهي . وهي تربي فيه نوازع الركون إلى الخمول والاتكال على الآخرين ، وتبني في أعماقه عجزاً مدمراً يلم بحياته الخاصة والعامة ، وتؤثر على تركيبه الشخصي مما تفقده القدرة على التغيير والنزوع إلى الأفضل . لنأخذ مثلاً ((من تزوج أمنا هو عمنا)) ، ((يا كتكت كل واسكت)) ، ((عشعش تعيش)) ، ((بوري الصبح مسمار الركب)) . المثل الأول يدفع الإنسان إلى الاستسلام والتخاذل ويقيد قواه العقلية والجسمانية ، ويشل حركته في البناء والتغيير ، وإعادة الحياة إلى وجهها الصحيح. والمثل الثاني والثالث يدفعان إلى تعطيل إدراك الحقيقة الأبدية في الإنسان ، كونهما يريان في الرضوخ وتقبل الأمر الواقع حقيقة جوهرية في الحياة . والمثل الرابع ذو هدف يخل بحياة الإنسان وصحته الجسمانية ، وهو مثل ضار اجتماعياً وخطر على حياة الناس ، فهو ينشر مفهوماً خاطئاً في أوساط الناس ويدعو إلى التدخين دون مراعاة لقواعد الصحة

العامة . وإذا كان الهدف منه الدعوة إلى الممارسة الجنسية في الصباح فهو أكثر ضررا . هذا النوع من الأمثال لابد من حذفه من كتبنا قصد الحرص على حياة أبنائنا . وإذا اقتضت الضرورة التاريخية والأمانة العلمية إيراده فينبغي أن نشفعه بتحليل يدحض ما ورد فيه من ضلال وبهتان . وكلنا يدرك مضار التدخين وآثاره الخطيرة على البشر ، ويدرك أضرار الاستسلام والتخاذل و الاتكال على الآخرين .

تقسيم الأمثال من حيث المغزى إلى سلبي وإيجابي ضرورة لا مهرب عنها ، فهي تلقي الأضواء على كثير من القضايا المهمة في الأدب الشعبي اليمني ، وتبصرنا بالطريق الصحيح إلى فهمه واستيعاب نظرته إلى الحياة والناس ، وموقف المؤلف الجماعي من مختلف جوانب الحياة وتقويمه لها . ولابد من الإشارة هنا إلى أننا نفرق بين الأمثال السلبية والأمثال البذيئة ، إذ إن الأمثال السلبية تحمل في جوهرها دعوة إلى مخالفة المنطق الحق والعقل السليم دون أن تكون ألفاظها أو عباراتها مجانفة للذوق الشريف والطبع الراقي ، في الوقت الذي تحمل فيه الأمثال البذيئة ألفاظا وعبارات نابية أو فاحشة تؤذي العقل والمنطق على السواء ، لكنها لا تدعو دائما إلى مواقف سلبية ولا تعبر عن أهداف غير إنسانية . ولعل من الواضح تماما أن مصدر هذه الأمثال البذيئة الفئات الدنيا أو غير المهذبة من المجتمع اليمني.

الهوامش

(١) الأكوع (إسماعيل بن علي):الأمثال اليمانية، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٧ م ص ٩ .

(٢) أجارتشيف (أناتول) : أحكام علي بن زايد ، دار العلم للنشر ، موسكو ١٩٦٨ م .

(٣) البردوني (عبدالله) : قضايا يمنية ، دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٨ م .(الطبعة الثالثة) ص (٢١٩ -٢٢٠) .

(٤) المصدر(نفسه) .

(٥) المصدر(نفسه) .

(٦) المقالح (عبد العزيز) : شعر العامية في اليمن، دار العودة، بيروت ١٩٧٨ م،ص ٣٩١.

(٧) انظر: يعقوب (أميل بديع): موسوعة أمثال العرب، الجزء الأول، الدراسة، دار الجيل، بيروت ١٩٩٥م. ص (٩٤ - ١٠١) .

(٨) الأكوع (إسماعيل بن علي) : المصدر السابق ، ص (٩) .

(٩) الأكوع (إسماعيل بن علي) : المصدر السابق .

(١٠) الأكوع (إسماعيل بن علي) : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص (١) .

(١١) المصدر نفسه ، ص (٢٤٧) .

(١٢) المصدر نفسه ، ص (١١٤) .